ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Hussam Adel Ali Anbar

Al-Mustansiriya University / College of Arts

Email: hussam86@uomustansiriyah.edu.iq

Keywords:

Manifestations, alienation, poetry, link, al-Basri.

Article info

Article history:

Received	20. Jun.2026
Revised	19. Jul.2026
Accepted	19. Jul.2026
Published	25. Nov.2026

Manifestations of alienation in the poetry of Ibn Lankak al-Basri (d. 360 AH - 970 AD) Cultural Study

A B S T R A C T

This research seeks to shed light on the phenomenon of alienation in the poetry of Ibn Lankak al-Basri (d. 360 AH - 970 AD), an obscure Abbasid poet who lived in the fourth century AH. He was resentful of the time in which he lived, and his poetic output was dominated by themes that highlight the alienated self. He adopted the theme of complaining about time and its changing circumstances, and overcoming the unbalanced times, as a pattern that corresponds to what his alienated self was made of. He sought to burden time with the consequences of the fractured reality, and to give voice to the crises that created that fracture, as obstacles that stand in the way of the free people in their times. He expressed his conflicting tendencies and the culture of the pattern by declaring the disruption of the feeling of reality and of the self, and the lack of a good distinction between the rational and irrational world. This meaning was represented in most of his poetic texts, which he charged with the connotations of alienation. To express that tendency that had taken hold of his being.

© 2026 EDUJ, College of Education for Humans Sciences, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol65.Iss2.5340

تجليات الاغتراب في شعر ابن لنكك البصري (ت٣٦٠هـ- ٩٧٠م) دراسة ثقافية

م.د. حسام عادل علي عنبر

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

الملخص

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على ظاهرة الاغتراب في شعر ابن لنكك البصري (ت٣٦٠هـ -٩٧٠م)، وهو شاعر عباسي مغمور، عاش في القرن الرابع الهجري، وكان ناقمًا على الزمن الذي عاش فيه، فغلب على نتاجه الشعري الموضوعات التي تُبَرِّزَ الذات المُغتربة، إذ اتخذ من موضوع شكوى الزمان وتقلب صروفه، ومُغالبة الدهر الذي اختلت موازينه نسقًا يتوافق وما جُبلت عليه ذاته المُغتربة، فعمد إلى تحميل الزمن تبعات الواقع المتصدع، واستنطق الأزمات التي

أوجدت ذلك الصدع، بوصفها عقبات تعترض طريق الأحرار في أزمانهم، وقد عبَّر عن نزوعه المتقاطع وثقافة النسق بوساطة التصريح باختلال الشعور بالواقع وبالذات، وانعدام التمييز –على نحوٍ جيد– بين العالم المعقول واللامعقول، وقد تمثَّلَ هذا المعنى في أَكثر نصوصه الشعرية التي شحنها بدلالات الاغتراب؛ للتعبير عن تلك النزعة التي استحوذت على وجوده.

الكلمات المفتاحية: تجليات، اغتراب، شعر، لنكك، البصري.

المقدمة

شكَّلت ظاهرة الاغتراب في العصر العباسي اتجاهًا أدبيًا منمازًا، إذ نجد صدى هذا الاتجاه في نتاج أغلب شعراء هذا العصر، وذلك يرجع إلى البواعث التي دفعت بهم إلى التعبير عن موقفهم ازاء التقلبات السياسية، والواقع الاجتماعي المتردي، وبذلك اتخذ الشعراء الذين استحوذت عليهم هذه النزعة موقفًا متقاطعًا وثقافة النسق، وتباينت مواقفهم في تمثُّلِ هذه الظاهرة بين التقاطع المباشر القائم على التصريح، والتقاطع غير المباشر القائم على التلميح والايحاء، وقد وقفت دراسات وبحوث عديدة على ظاهرة الغربة والاغتراب في شعر العصر العباسي، وهي دراسات قيمة تناولت حقبة زمنية معينة من تاريخ الشعر العربي في العصر العباسي، وبعضها قد أفرد دراسات مستقلة لرصد هذه الظاهرة في نتاج بعض الشعراء العباسيين وتسليط الضوء على منجزهم الشعري انطلاقًا من رصد تمثلات الاغتراب في أشعارهم، ومن هذا المنطلق سيرصدُ هذا البحث تمثلات الاغتراب في شعر ابن لنكك البصري بوصفه شاعرًا عباسيًا تملكته نزعة الاغتراب نتيجةً لكساد بضاعته الأدبية، وتراجع مكانة الشعر في حاضرة البصرة آنذاك.

إنَّ شعر ابن لنكك البصري يحفل بالتمثلات الثقافية التي تحتشد بدلالة الاغتراب، فقد عبَّرَ الشاعر عن هذا النزوع بتوظيف دلالة الزمن بوصفها السلطة التي تتحكم بمصير الإنسان في حياته، فاتخذ من شكوى الزمان وذمه، ومُغالبة الدهر الذي اختلت موازينه نسقًا يتكأُ عليه في التعبير عمَّا يتناغم وما جُبلت عليه ذاته المُغتربة، فعمد إلى تحميل الزمن التبعات التي أدت إلى تصدع الواقع، واستنطق الأزمات التي أوجدت ذلك الصدع، بوصفها عقبات تعترض طريق الأحرار في أزمانهم، ولم يكتف الشاعر بالتعبير عن موقفه من الزمن الذي يتصف بالاختلال؛ بل عبَّر عن نزوعه المتقاطع وثقافة النسق بوساطة التصريح باختلال الشعور بالواقع وبالذات، وانعدام التمييز –على نحوٍ جيد– بين العالم المعقول واللامعقول، وقد تمثَّلَ هذا المعنى في أَكثر من نص للتعبير عن نزعة الاغتراب التي استحوذت على وجوده، إذ إنَّ الواقع حسب رؤية ابن لنكك غير متسق، ويتصف باللامنطقية، وقد أعزى هذا التصدع إلى اختلال موازين الزمن، إذ تركت آثارها السلبية التي أدت إلى اختلال شعوره بالواقع وبالذات.

التمهيد: مفهوم الاغتراب وحياة الشاعر

إنَّ تحديد المنطلقات البحثية في التمهيد يقتضي منا التعريف بالظاهرة التي سيتم بحثها المتمثلة بـ(الاغتراب)، وتسليط الضوء على حياة الشاعر (ابن لنكك البصري) بوصفه المبدع الذي قدم لنا هذه التجربة الشعرية التي تمثَّلَ فيها هذه النزعة (الاغتراب)، ومن هذا المنطلق سنُناقش في المدخل الأول مفهوم الاغتراب من الناحية اللغوية ومن الناحية الاصطلاحية، وسنقف في المدخل الثاني على بعض المحطات التي تخص حياة الشاعر، ومحاولة تقديم نبذة موجزة عن أخباره التي وجدناها متناثرةً في المصادر القديمة، وقد قصَّرت هذه المصادر عن الإحاطة بحياة الشاعر إحاطة شاملة.

المدخل الأول: مناقشة مفهوم الاغتراب

الاغتراب لغة:

مأخوذة من الجذر الثلاثي لكلمة "غرب"، وغَرُبَت الشَّمْسُ تَغْرُبُ غُروبًا: غَابَتْ فِي المَغْرِبِ، وَالغَرْبُ: التَّنَحِي عن النَّاس، وَقَد غَرَبَ عَنَا يَغْرُبُ غَرْبًا، وَغَرَبَ وَأَغْرَبَ وَغَرَّبَهُ: نَحَّاه، والغَرْبَةُ وَالغَرْبُ: النَّوَى والبُعْد... وَالنَّوَى: غَرْبَةٌ بَعِيدَة، وَغَرَبَ أَي بَعُدَ، وَيُقال: أُغْرُبْ عني أَي تَبَاعد، ويُقال: أَغْرَبْتَهُ وَغرَّبْتَهُ إذا نَحَّيتَهُ وأَبْعَدتَهُ، والغَربُ والغُرْبُ: النُّزُوح عن الوطن، والاغترابُ والتَّغَرُّبُ، ورَجلٌ غُرُبٌ وَغَرِيبٌ: بَعيدٌ عن وطنهِ، والغُرْبَةُ: البُعْدُ عَنْ الوَطَنْ، ومن هذا الباب غُرُوبُ الشَّمْس، كأَنَّهُ بُعْدُهَا عن وجْهِ الْأَرْضِ، وَشَأْوٌ مُغْرِبٌ أَي بَعِيدٌ" (ابن منظور (ت٧١١هـ)، ٢٠٠٥م، صفحة مادة: غرب)، فالاغتراب في اللغة لا يخرج عن معنى الابتعاد والنزوح، والتواري عن الأنظار، والتقاطع أو مفارقة السواد الأعظم من الناس، أو عدم التوافق والثقافة السائدة في مجتمع معين.

الاغتراب اصطلاحًا:

يرى ريتشارد شاخت إنَّ مُصطلح الاغتراب تم توظيفه بطرق مختلفة، حتى اكتنفه الغموض الشديد، ولم يبقَ جانب من جوانب الحياة إلا ونُوقش عبر توظيف هذا المفهوم، حتى أنَّ أحد الباحثين حين كان يشعر بأنَّ شيئًا ما ليس كما ينبغي أن يكون كان يصفه من خلال الاغتراب (شاخت، ١٩٨٠، صفحة ١٤٧)، ويبدو أَنَّ ظاهرة الاغتراب تتجلى بصورة أعمق لدى الفلاسفة والمفكرين أكثر من سواهم، فقد ورد مفهوم الاغتراب بصورٍ مختلفة في المدونات الفلسفية القديمة، وقد تمت الإشارة إليه في الملاحظ التي طرحها بعض فلاسفة الإغريق القدامى، كـ(سقراط)، وقد تداول هذه الفكرة عدد كثير من مؤرخي الفلسفة في كتابات أَفلاطون ونظريته عن الفيض، وتتبعوا ظهورها وتطورها في الأَفلاطونية الحديثة، وانتقالها إلى اللاهوت المسيحي ومعالجتها في كتابات عدد من الفلاسفة الاجتماعيين في أوربا، لاسيما في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر (شاخت، ١٩٨٠، صفحة ٦٣)، وقد تعددت تعريفات مصطلح الاغتراب بحسب تعدد الاتجاهات الفكرية، فـ"الاغتراب في سياق علم النفس متعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية وما يستشعر من غربة في العالم، وفتور أو جفاء في علاقته مع الآخرين" (النوري، ١٩٧٩م، صفحة ١٩)، ويرى علماء التحليل النفسي كـ (فرويد، وإريك فروم، وهورني) إنَّ الاغتراب حالة نفسية يعاني من تملكتهم هذه الحالة من الشعور بعدم الارتياح وعدم الاستقرار والقلق والعزلة والشعور بالضياع، وإنَّ هذا الشعور غالبًا ما يُؤدي إلى نتائج نفسية، كالفصام والشرود الذهني، وتفكك المشاعر، وإحساس الفرد بعدم أهميته، واختلال شخصيته (الراوي، ٢٠٠٢م، صفحة ج٢/٨٦)، أما الاغتراب من منظور علم الاجتماع، فيرى علماء الاجتماع أنَّ الاتجاهات الفكرية منذ أول توظيف لمصطلح الاغتراب في نظرية العقد الاجتماعي هو نتيجة تُحاذي تنوع الاتجاهات الفكرية في التراث اللغوي والسيكلوجي والسوسيولوجي (شتا، ١٩٨٤م، صفحة ١)، ويمكن أن تُفسر العزلة الاجتماعية بمعنى غياب العلاقات الشخصية الايجابية، ويُمكن تفسيرها أيضًا بمعنى التحلل من الأعراف والقيم السائدة في المجتمع (الثقافة السائدة)، فحينما تغترب البنية الاجتماعية عن الفرد، فإنَّ العقل سيتفرق داخل ذاته، وتنشأ علاقة الاغتراب (شاخت، ١٩٨٠، صفحة ١٠٥)، إنَّ الاختلاف في توظيف مصطلح الاغتراب يُعدُّ نتيجة تُساوق الاتجاهات المتعددة التي وقفت على هذا المفهوم من الناحية النفسية والاجتماعية والثقافية، وعلى الرغم من كثرة المؤلفات التي تتبعت هذه الظاهرة، فما زال هذا المصطلح يكتنفه الغموض، إذ إنَّ أغلب الجهود التي بُذلت في تأصيله، لم تضع حدًّا يمنع من تداخل عناصر أخرى مع دلالته الاصطلاحية، ويبدو أن دلالة هذه العناصر تنتهي إلى النتيجة التي يتشارك فيها أغلب الذين تملكتهم نزعة الاغتراب، كالوحدة، والغربة، والانفصال، والتخلي والانقطاع، والانخلاع، والابتعاد والتجنب، والانسلاخ عن المجتمع، والإخفاق في التكيف، والعجز عن التلاؤم، واللامبالاة، وانعدام الشعور بمغزى الحياة، وعدم الإحساس بالانتماء.

لقد عاش أغلب شعراء العصر العباسي تجربة الاغتراب والانفصال عن المجتمع، وقد "ساعد على نمو هذه الظاهرة واتساعها ما اتسم به هذا العصر من اضطرابات وصراعات... إضافة إلى ما شاع في هذا العصر من فساد خلقي، وطغيان سياسي، وتفاوت طبقي" (سلامي، ٢٠٠٠، صفحة ٩٤)، فاتسعت الهوَّة بين الشاعر والآخر، وتعاظم الشعور بالاغتراب، "وقد عملَ التطور الاجتماعي وتزايد السكان وتكاثفهم وتجمعهم في المدينة على اضعاف الصلات الحميمة بين الشاعر والآخر... وساعد كذلك على تنمية العلاقات التي تمليها الحاجة المادية وجملة الضرورات التي تنشأ من تشابك الحياة الاجتماعية وتعقدها، وساعد هذا بدوره على زيادة التصدع والضياع، وصار المجتمع كتلة كثيفة معتمة تحول بين الشاعر والضوء، فازداد شعوره بأنه منبوذ، محاصر، مخنوق" (سعيد، ١٩٧٩، صفحة ٣٨)، وكذلك أَسهم الفساد الاقتصادي في تفاقم ظاهرة الاغتراب في مجتمع العصر العباسي، إذ وصل فساد النظام الاقتصادي في القرن الرابع الهجري إلى مرحلة لم يسبق لها مثيل من قبل، وكان لهذا الفساد أثر سيء على حياة الناس، فأحدث خلل في التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع، إذ بلغ التفاوت الطبقي بين فئات المجتمع العباسي حدَّ التناقض (سلامي، ٢٠٠٠، صفحة ١٠٦)، فلم تُوزَّع الثروة "توزيعًا عادلًا، ولا متقاربًا، والحدود بين الطبقات كانت واضحة كل الوضوح، فجنة ونار، ونعيم مفرط، وبؤس مفرط، وامعان في الترف يُقابله فقدان القوت" (أمين، د.ت، صفحة ج١/٩٧)، فالفقر أخطر ما يُهدد حياة الإنسان، إذ إنَّهُ "يرتبط مباشرة بحاجاته الحيوية الأُولى، والجوع كما يُقرر علماء الاجتماع هو أول الدوافع الغريزية المسيطرة على حياة الإنسان، وكثير من الصراعات الطبقية في التاريخ كان سببها المباشر الفقر والجوع" (صالح، ٢٠٢٥، صفحة ١٢٦)، وقد عبَّر شعراء العصر العبَّاسي عن تلك المشاعر التي حملت مُعاناتهم بقصائد كثيرة، وتجدر "الإشارة إلى أَنَّ هذه الأشعار التي تُبَرِّزُ مشاعر الاغتراب عن الناس والمجتمع في تلك المرحلة، والتي كان سببها الفقر والحرمان أكثر من أَن تُحصى؛ لأنَّ خُلفاء بني العباس حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد، وتمتعوا هم وحاشيتهم ومن يتصل بهم بأموال الدولة ومواردها الضخمة، في حين عاشت طبقات الشعب الأخرى في ضنك العيش، وفقر وحرمان، وتجرعت غصص البُؤس والشقاء" (سلامي، ٢٠٠٠، صفحة ٩٩)، وبذلك اتخذ شعراء العصر العباسي موقفًا مُتقاطعًا من ثقافة العصر التي تُعاني من التصدع، وغالبًا ما يتجلى هذا الموقف في نصوص الشعراء الذين هيمن على نتاجهم الشعري اتجاه الشكوى من الزمن، إذ يعكس هذا الاتجاه مدى توجعهم من الدهر الذي لم يُنصفهم.

المدخل الثاني: حياة الشاعر ابن لنكك

هو "محمد بن محمد بن جعفر أَبو الحسن المعروف بابن لنكك البصري النحوي الشاعر الأديب" (الرومي، ١٩٩٣م، صفحة ٢٦١٩)، وهو "من أهل البصرة، كان من النحاة الفضلاء والأُدباء النبلاء، روى قصيدة دعبل التائية التي مدح بها أهل البيت" (الصفدي (ت٧٦٤هـ)، ٢٠٠٠م، صفحة ج١/١٣٤، رقم الترجمة ٧٥)، هذه ترجمته في أهم المصادر القديمة، إذ لم تُلبِ هذه المصادر شغف الباحثين بذكر الأخبار التي تفي بتكوين صورة شاملة عن حياة الشاعر ابن لنكك، فلم تصلنا معلومة تُحدد سنة ولادته، أو تُبيّنُ ظروف نشأته، أو المنابع التي استقى منها ثقافته، وأهم ما وصل إلينا عن ابن لنكك شعره الذي أَضاء لنا بعض الجوانب المهمة من حياته، وإنَّ أَقدم من ترجم للشاعر ابن لنكك هو أَبو منصور الثعالبي، ولم يذكر في كتابه "يتمة الدهر" أخبارًا تُضيء جوانب مهمة من حياة الشاعر، سوى بعض التعميمات الانطباعية التي يتم تداولها في الكتب القديمة، إذ استهل ترجمته بقوله: "فرد البصرة، وصدر أُدبائها وبدر ظرفائها في زمانه، والمروع إليه في لطائف الأدب وظرائفه طول أيامه..." (النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، ١٨٩٣م، صفحة ج٢/٤٠٧)، واكتفى ياقوت الحموي بتكرار العبارات التي أوردها الثعالبي في يتيمته، مع اجراء تعديل بسيط على بعضها.

ويمكن أن نستدل من خلال بعض أشعاره أنَّ ابن لنكك كان على صلة بأدباء عصره، فقد صحب الشاعر المفجع البصري (ت٣٢٧هـ)، "هو صاحب ابن دريد والقائم مقامه بالبصرة في التأليف والإملاء" (النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، ١٨٩٣م، صفحة ج٢/٤٢٤)، وذكر الثعالبي إنَّ المُفجَّع البصري روى لابن لنكك هذين البيتين التي قال فيها (النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، ١٨٩٣م، صفحة ج٢/٤٢٧):

[من السريع]

لَنَـــا سِـــرَاجٌ نُـــورُهُ ظُلْمَـــةٌ لَـــيْسَ لَـــهُ ظِـــلٌّ عَلَـــى الْأَرْضِ
كَأَنَّـــهُ شَـــخْصُ الإِمَـــام الَّـــذِي تَبْغِـــي الْهُـــدَى مِنْـــهُ أُولُـــو الـــرَّفْضِ

واتصل أَيضًا بالشاعر الخبزأزري (ت٣٣٠هـ)، "وكان ابن لنكك –على ارتفاع مقداره– ينتاب دكانه ويسمع شعره، فحضره يومًا وعليه ثياب بيض فاخرة، فتأذى بالدخان وساء أثره على ثيابه، فانصرف وكتب إليه" (النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، ١٨٩٣م، صفحة ج٢/٤٢٨)، هذا النص الشعري مُعاتبًا له (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٣٧):

[من الوافر]

لِنَصْـــرٍ فِـــي فُـــؤَادِي فَـــرْطُ حُـــبٍّ يُنِيْـــفُ بِـــهِ عَلَـــى كُـــلِّ الصِّـــحَابِ
أَتَيْنَـــــاهُ فَبَخَّرَنَـــــا بَخُـــــورًا مِـــنَ السَّـــعْفِ المُـــدَخِّنِ بِالْتِهَـــابِ
فَقُمْـــتُ مُبَـــادِرًا وَحَســـبْتُ نَصْـــرًا يُرِيْـــدُ بِـــذَاكَ طَـــرْدِي أَو ذَهَـــابِي
فَقَـــالَ: مَتَـــى أَرَاكَ أَبَـــا حُسَـــيْنٍ؟ فَقُلْـــتُ لَـــهُ: إِذَا اتسَـــخَتْ ثِيَـــابي

"فلما قُرئت عليه الرقعة التي فيها هذه الأبيات، أملى على من كتب لهُ في ظهرها هذه الأبيات" (النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، ١٨٩٣م، الصفحات ج٢/٤٢٨–٤٢٩) التي نظمها على وزن وروي أَبيات ابن لنكك المذكورة آنفًا، قال فيها (حلوه، ٢٠١٥، الصفحات ٣٨–٣٩):

[من الوافر]

أَعَـــرْتُ أَبَـــا الْحُسَـــيْن صَـــمِيمَ وِدِّي فَـــــدَاعَبَنِي بِأَلْفَـــــاظٍ عِـــــذَابِ
أَتَـــى وَثِيَابُـــهُ كَالشَّـــيْبِ لَونًـــا فَعُـــدْتُ لَـــهُ كَرَيْعَـــانِ الشَّـــبَابِ
رَأَيْـــتُ جُلُوسَـــهُ عِنْـــدِي كَعُـــرْسٍ فَجُـــدْتُ لَـــهُ بِتَمْسِـــيْكِ الثِّيَـــابِ
وَبُغْضِـــي لِلْمَشِـــيْبِ أَعَـــدَّ عِنْـــدِي سَـــوَادًا لَونُـــهُ لَـــونُ الْخِضَـــابِ
فَقَـــالَ: مَتَـــى أَرَاكَ أَبَـــا حُسَـــيْنٍ؟ فَقُلْـــتُ لَـــهُ: إِذَا اتسَـــخَتْ ثِيَـــابي
وَإِنْ كَـــانَ التَّقَـــزُّزُ فِيْـــهِ فَخْـــرًا فَلِـــمْ يُكْـــنَ الْوصِـــيُّ أَبَـــا تُـــرَابِ

ولم تكن صلات ابن لنكك بأُدباء عصره على مستوى واحد، إذ إنَّ إخفاقه في استثمار موهبته بالطريقة الصحيحة، وعدم تجاوبه والظروف المحيطة به، جعلت شخصيته تنطوي على شيءٍ من الحسد، فـ"كانت حرفة الأدب تمسهُ وتجشمهُ، ومحنة الفضل تُدركه فتخدشهُ، ونفسه ترفعه ودهره يضعه، واتفق في أيامه هبوب الريح للمتنبي، وعلو رتبته، وبُعد صيته" (النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، ١٨٩٣م، صفحة ج٢/٤٠٧)، فقد ذكر الثعالبي أَنه "لمَّا قدم أَبو الطيب من مصر إِلى بغداد،

وترفع عن مدح المهلبي الوزير، ذاهبًا بنفسه عن مدح غير الملوك، شقَّ ذلك على المهلبي، فأغرى به شعراء بغداد، حتى نالوا من عرضه، وتباروا في هجائه، وفيهم ابن الحجاج، وابن سكرة [محمد بن عبدالله الزاهد] الهاشمي، والحاتمي، وأَسمعوه ما يكره، وتماجنوا به، وتنادروا عليه، فلم يجبهم" (النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، ١٨٩٣م، صفحة ج١/١٥٠)، فلما "بلغ أَبا الحسين بن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء بغداد فيه، واستحقارهم له، وكان حاسِدًا له، طاعنًا عليه، هاجِيًا إياه، زَاعمًا أَنَّ أَباه كانَ سقَّاء بالكوفة، فشمت به وقال" (النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، ١٨٩٣م، صفحة ج١/١٥١) هذه الأبيات التي هجاه بها وهجا فيها أهل زمانه (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٦٣):

[من البسيط]

قـــولًا لِأَهْـــلِ زَمَـــانٍ لَا خَـــلَاقَ لَهُـــمْ ضَـلُوا عَـن الرُّشْـدِ مِـنْ جَهْـلٍ بِهِـمْ وَعَمُـوا
أَعْطَيْـــتُمُ "المُتَنَبِشـــي" فَـــوقَ مُنْيَتِـــهِ فَزَوَّجُـــــوهُ بِـــــرَغْمِ أُمَّهَـــــاتِكُمُ
لَكِـــنَّ بَغْـــدَادَ جَـــادَ الْغِيْـــثُ سَـــاكِنَهَا نِعَـــالُهُمْ فِـــي قَفَـــا السَّـــقَّاءِ تَـــزْدَحِمُ

أَمَّا سنة وفاة ابن لنكك فقد أغفلتها كُتب التراجم، باستثناء الزركلي الذي أرجع سنة وفاته إلى سنة (٣٦٠هـ- ٩٧٠م)، ولم يذكر الزركلي المصدر الذي اعتمده في تحديد سنة وفاة الشاعر، علمًا أنَّ الاختلاف في سنة تحديد وفاة علم من الأعلام من المسائل المتعارف عليها في كتب التراجم، وفي أَغلب الأحيان يكون الاختلاف بين المترجمين حول فارق زمني قليل قد يتفاوت هذا الفارق حول بضعةِ أشهر في العام الواحد، أَو بضعة أَعوام لا تتجاوز العقد في قرنٍ من الزمن، في حين نجد أَن الفارق الكبير بين ما تم تحديده حول سنة وفاة الشاعر ابن لنكك البصري من قِبل الزركلي، وما ذهب إليه محقق شعر الشاعر الدكتور زهير غازي زاهد، إذ يصل الفارق الزمني إلى أَربعين سنة، وقد استبعد المحقق سنة وفاة ابن لنكك التي أوردها الزركلي في كتابه الأعلام، وكانت "... نحو ٣٦٠هـ- ٩٧٠م" (الزركلي، ٢٠٠٢، صفحة ج١/٤٧)، ورجَّح المحقق أن وفاة ابن لنكك كانت في حدود الأربعمائة، وقد اعتمد في ذلك على صورة تقريبية ممن كان يتصل بهم ابن لنكك، واستند في ذلك إلى رواية ابن شاكر الكتبي (زاهد، ٢٠٠٥، الصفحات ٢٢-٢٣)، ولم يتنبَّه المحقق إلى أن سنة الوفاة التي أوردها الكتبي في كتابه فوات الوفيات لا تخص سنة وفاة الشاعر محمد بن محمد بن جعفر بن لنكك؛ بل كانت تخص سنة وفات ابنه إبراهيم بن محمد بن محمد بن جعفر بن لنكك (ت٤٠٠هـ) (الكُتبي (ت٧٦٤هـ)، ١٩٧٣، صفحة ج١/٤٧)، ولو انطلقنا من منطلق صلة الشاعر برجالات عصره كما فعل محقق شعر الشاعر، وقاربنا بين السنوات التي تُوفي فيها أَشهر من عاصرهم الشاعر ابن لنكك، كـ المفجع البصري (ت٣٢٧هـ)، والخبزأرزي (ت٣٣٠هـ)، المتنبي (ت٣٥٤هـ)، سنُرجح ما ذهب إليه الزركلي في كتابه الأعلام في أن سنة وفاته كانت في حدود ٣٦٠هـ- ٩٧٠م.

تجليات الاغتراب في شعر ابن لنكك البصري

إنَّ البواعث العامة للاغتراب غالبًا ما تُشكِّلُ أَنماطًا مُتعددةً من مشاعر الرفض أو عدم التوافق بين الذات والآخر، وعلى وفق ذلك تمَّ تكريس جدلية الصراع بين الواقع السائد والواقع المأمول؛ لتُعبِّرَ عن مدى التفاوت القائم بين الواقعين، إذ إنَّهُ كُلَّمَا عَظُمَ الإحساس بحقيقة هذا التفاوت وإدراك أَبعاده النفسية العميقة، اتسعت فجوة التباعد في نفس الشاعر؛ ذلك أنَّ تكوينه النفسي تكوين خاص يُسيِّرهُ الاحساس المرهف والخيال الخارق، وهذا التكوين الخاص يدفعُ بالشاعر إلى حالة من القلق الدائم والتوتر المستمر، وتبعًا لذلك قِيل: "إنَّ أعصاب البشر تحت جُلودهم، أَما الشعراء فأعصابهم فوق جلودهم" (المقالح، ١٩٨٥، صفحة ٥٥)، ومن هذا المنطلق نلحظ أنَّ نصوص الشعراء الذين يتصفون بالإحساس المرهف تحفل بتمثلات الاغتراب، فهم أَكثر تأثرًا من سواهم في استشعار بواعث هذا النُزوع، وهذا ما تمت ملاحظته في شعر ابن لنكك البصري بوصفه شاعرًا مرهف الحس، فقد احتفت أَغلب أَشعاره بالتمثلات الثقافية التي تحتشد

بدلالة الاغتراب، فاتخذ من شكوى الزمان وذمه، ومُغالبة الدهر الذي اختلت موازينه نسقًا يتناغم وما جُبلت عليه ذاته المُغتربة، فعمد إلى تحميل الزمن التبعات التي أدت إلى تصدع الواقع، وقد عبَّرَ ابن لنكك عن موقفه من الزمن الذي برَّزَ ذاته المغتربة بطرقٍ مُتعددة، وسيقف هذا البحث على نزعة الاغتراب الذاتي في شعر ابن لنكك البصري عبر المحاور الآتية:

المحور الأول _ مُغالبة الدهر والتعجب من صروفه

يحفل شعر ابن لنكك البصري بتمثلات هذا النَّمط من الخِطَاب الشِّعري، وقد هيمن على نصوصه اتجاه شكوى الزمان وذمه، ومُغالبة الدهر الذي اختلت موازينه، وأراد عبر هذا الاتجاه ذم المجتمع الذي عاش فيه، والتلميح بتقاطعه وثقافة عصره، وقد استحوذ هذا الاتجاه على أغلب أشعاره، وأَشار ياقوت الحموي إلى هذه الاتجاه الذي هيمن على شعره بقوله: "فكان أَكثر شعره في شكوى الزمان وأهله، وهجاء شعراء عصره" (الرومي، ١٩٩٣م، صفحة ٢٦١٩)، فهو حينما يذم الزمان ويتبرم منه، أراد عبر ذلك ذم المجتمع الذي عاصره، وازدراء الواقع الذي يدفع بأَفراد المجتمع إلى التزاحم على فرص الحياة بشتى الطرق، وقد أَكَّدَ على ذلك بقوله (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٦٨):

[من الوافر]

يَعِيْبُ النَّاسُ كُلُّهُمُ الزَّمَانَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
نَعِيْبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا ... وَلَو نَطَقَ الزَّمَانُ إِذَنْ هَجَانَا
ذِئَابٌ كُلُّنَا فِي زِيِّ نَاسٍ ... فَسُبْحَانَ الَّذِي فِيْهِ بَرَانَا
يَعَافُ الذِّئْبُ يَأكُلُ لَحْمَ ذِئْبٍ ... وَيَأكُلُ بِعْضُنَا بَعْضًا عِيَانَا

يُصرح ابن لنكك في هذا الخطاب الشعري أنَّ تحامل المجتمع على الزمان والتنكر له عبر ارجاع العيوب النسقية إليه ما هو إلا سلوك قبيح يتقاطع وميثاق السلوكيات القويمة، إذ إنَّ المجتمع العباسي الذي يُعاني من التصدع القيمي، يُحاول أَن يتخلص من تلك القُبحيات عبر خلعها على المرحلة التي تزامنت ووجودهم، وبذلك يربؤوا بأَنفسهم من العيوب النسقية التي تفشت في المجتمع وأَوجدت ذلك الصدع، غير أنَّ ابن لنكك الذي لديه موقفٌ متقاطعٌ وثقافة النسق، قد أرجع تلك العيوب النسقية إلى المجتمع الذي عاش فيه، وبذلك أَبعد تلك العيوب التي أُلحقت بالزمان من دون مبرر، وأَرجعها إلى مصدرها الرئيس المتمثل بالمجتمع **(نَعِيْبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا)**، فعمد إلى تشخيص الزمان، واشترط خاصية النطق بفعل الخيال الاستعاري بقوله: **(وَلَو نَطَقَ الزَّمَانُ إِذَنْ هَجَانَا)**، فأَنسن الزمان الذي نطق بهجاء أَفراده، ثُمَّ لمَّح إلى حقيقة المجتمع الذي تحكمه شريعة الغاب **(ذِئَابٌ كُلُّنَا فِي زِيِّ نَاسٍ)**، إذ انحدرت سلوكيات النفس البشرية إلى مستوى الحيوانات الضارية التي يستقوي بعضها على البعض الآخر، وقد أَبدى الشاعر استياءَهُ تُجاه هذا الانحدار بصورةٍ تهكمية بقوله: **(فَسُبْحَانَ الَّذِي فِيْهِ بَرَانَا)**، إذ إنَّ النفس الإنسانية استحالت إلى طبيعة ضارية، وإنَّ هذه الطبيعة تتنافى وما برأ الله تعالى الناس عليه؛ بل أَنَّ ابن لنكك قد جعل الذئاب أَسما منزلة من بني البشر؛ كونها لا تأكل لحم جنسها الذي تنتمي إليه، في حين أنَّ الإنسان يأكل لحم أخيه الإنسان في سبيل تحقيق مصالحه الخاصة، وتتجلى هذه العيوب النسقية عبر تجرد الإنسان عن المبادئ والقيم، وقيامه بأُمورٍ تتنافى مع الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى الناس عليها، وتقاطعها والغاية الرئيسة التي أوجدت الإنسان في هذا العالم، فهو بذلك يُعرَّضُ بعُزوف المجتمع عن المبادئ والقيم، وعدم اللجوء إلى القوانين التي تضمن حقوق الأَفراد في المجتمع.

ومن أَشعاره التي برزت فيها ذاته المغتربة عبر مغالبة الدهر والتعجب من صروفه، قوله (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٣٣):

[من المنسرح]

نَحْـــنُ مِـــنَ الـــدَّهْرِ فِـــي أعَاجِيْـــبِ فَنَسْـــــأَلُ الله صَـــــبْرَ "أَيُـــــوبِ"
أَقْفَـــــرَتِ الْأَرْضُ مِـــــنْ مَحَاسِـــــنِهَا فَابْـــكِ عَلَيْهَـــا بُكَـــاءِ "يَعْقُـــوبِ"

يُظهر هذا الخطاب الشعري مدى المعاناة التي كابدها الشاعر في الزمن الذي عاش فيه، وقد صرَّحَ بموقفه من الدهر الذي اتصف بالظواهر العجيبة التي أجبرته أَن يتجرع مرارتها، فمغالبة الدهر في هذا الخطاب تُظهر مدى السطوة التي فُرضت على الشاعر فعمد إلى توظيف خصلة الصبر التي اتصف بها نبي الله أيوب (عليه السلام)، إذ لا مناص من سطوة الدهر على الواقع إلا أن يتحلى الإنسان بصبر الأنبياء، فدعا الشاعر إلى أن تُذرف الدمع على الأرض التي أقفرت من محاسنها، كما بكى نبي الله يعقوب عليه السلام على فراق ابنه يوسف (عليه السلام)، فالواقع المتأزم يُحتم على الشاعر أن يبكي عليه بكاء الأنبياء.

إنَّ ابن لنكك قد صرَّح في أَغلب أشعاره بتقاطعه مع الدهر الذي لم ينصفه، ونلحظ ذلك في هذه الأبيات التي يقول فيها (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٣٤):

[من المجتث]

الـــــــدَّهْرُ دَهْـــــــرٌ عَجِيْـــــــبٌ فِيْـــــــهِ الوَلِيْـــــــدُ يَشِـــــــيْبُ
الْعِيْـــــــرُ فَـــــــوقَ الثُّرَيَّـــــــا وَفِـــــــي الوِهَـــــــادِ الْأَرِيْـــــــبُ

يُظهر هذا الخطاب الشعري تقاطع ابن لنكك البصري والثقافة السائدة في عصره، إذ لمَّحَ عن موقفه الذي يتقاطع والعصر الذي عاش فيه عبر تعجبه تُجاه مفارقات الدهر التي تدخل في حيز الاستحالة، وإنَّ هذه المفارقات تُوضِحُ مدى العيوب النسقية التي هيمنت على زمن الشاعر، فجاء تعجب الشاعر نتيجة انعكاس الصراع الداخلي القائم على تعارض الواقع المأمول القائم على المثال، والواقع السائد المحايث لتجربة الشاعر الواقعية التي خاضها في زمنه وأَوجدت لديه تلك المفارقات التي أدركها وتركت لديه تلك الرؤية السلبية التي جعلته يشعر بلامنطقية الدهر، إذ إنَّ اختلال موازين الزمن تقاطعت وتلك التصورات المثالية، ودفعت به إلى التصريح بموقفه المتقاطع وثقافة النسق التي جعلت الوليد يشيب، ورفعت الحمير فوق الثريا، ووضعت الأريب تحت الوهاد.

ونجد ابن لنكك ينحو ها المنحى في هذين البيتين الذين تمثَّلَ فيهما هذا المعنى يقول (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٣٤):

[من الطويل]

زَمَـــانٌ رَأَيْنَـــا فِيْـــهِ كُـــلَّ الْعَجَائِـــبِ وَأَصْـــبَحَت الأَذْنَـــابُ فَـــوقَ الـــذَّوَائِبِ
لَـــوْ أَنَّ عَلَـــى الْأَفْـــلَاكِ مـــا فـــي نُفُوسِـــنَا تَهَافَتَـــتْ الأَفْـــلَاكُ مِـــنْ كُـــلِّ جَانِـــبِ

يُعبر ابن لنكك في هذين البيتين عن موقفه المتقاطع وثقافة النسق، ولمَّحَ بعدم تجاوبه وثقافة عصره، عبر ما رآه من عجائب العصر الذي عاش فيه، إذ إنَّ تعجب الشاعر جاء نتيجة تقاطع تصوراته الذهنية القائمة على المثال، والواقع المتأزم الذي ترك أَثره على نفسية الشاعر، وقد أَوحى الشاعر بلا منطقية الدهر الذي انقلبت فيه مواثيق السلوكيات القويمة، إذ إنَّ تحول الأذناب إلى ذوائب، يدل على اختلال موازين الزمن الذي استحالت فيه القبحيات إلى جماليات، وقد ترك هذا الاختلال أثرًا كبيرًا على نفسية الشاعر، وبذلك أَوضح مدى تصدع النسق القيمي المتأتي من اختلال موازين

الزمن، فعمد إلى اقرانه باحتمالية قائمة على البعُد الكوني، فأظهرت تهافت الأفلاك، وعجز النظام الكوني المُتقن عن تحمل هذا الاختلال الذي ترك أثره على نفسية الشاعر.

المحور الثاني: أزمة الإنسان الحر وموقفه من سطوة الزمن

إنَّ أَزمة الإنسان الحر على مرِّ الأزمنة هو معاناته المريرة من عدم تكييفه والواقع الذي يتحكم في الزمن الذي وُجد فيه، وفي أغلب الأحيان يقف موقف العاجز ازاء الواقع المفروض عليه، إذ لا حول له إزاء سطوة الزمن، وقد تجلت هذه الأزمة في نتاج شعراء القرن الرابع الهجري، إذ إنَّ بعض التحولات السياسية التي طرأت على العصر العباسي، قد تركت أثرها على الواقع الاجتماعي، وأحدثت خلخلة في ميثاق السلوكيات القويمة، وانعكس ذلك على العلاقات بين فئات المجتمع، فنجد أنَّ ""الصداقة والعشرة والمُؤاخاة والألفة وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والذل والمواساة والجود والكرم قد ارتفع رسمهُ بين الناس، وعفى أثره عند العام والخاص" (التوحيدي (ت٤١٤هـ)، ١٩٩٨م، صفحة ٢٩)، وإنَّ هذه التحولات في القيم والمواثيق السلوكية قد تدفع بالإنسان الحر إلى تبني موقفًا مُضادًا، فيُحمّلُ الزمن التبعات التي أَوجدت تلك العقبات، وقد سعى الشعراء في العصر العباسي إلى رصد هذه الأزمات واستنطاقها بوصفها العقبة التي تعترض طريق الأحرار في أزمانهم، واتخذوا منها موقفًا مُتقاطعًا، وقد عبر ابن لنكك عن موقفه من الزمان الذي عاش فيه، وجوره عليه والأحرار من أمثاله، بصورة تستنطق البعد الكوني، إذ يقول (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٤٥):

[من البسيط]

جَـــارَ الزَّمَـــانُ عَلِيْنَـــا فِـــي تَصَـــرُّفِهِ وَأَيّ دَهْـــرٍ عَلَـــى الأَحْـــرَارِ لَـــمْ يَجُـــرِ
عِنْـــدِي مِـــنَ الـــدَّهْرِ مَـــا لَـــوْ أَنَّ أَيْسَـــرَهُ يُلْقَـــى عَلَـــى الْفَلَـــكِ الـــدَّوَّارِ لَـــمْ يَـــدُرِ

نلحظ إقرار الشاعر بحتمية سطوة الدهر وجوره على الأحرار، وإنَّ ابن لنكك لم يعجب من الدهر الذي يفرض جوره على ذوي النفوس الكبيرة كما نجده في الأبيات التي تم التطرق إليها آنفًا في المحور السابق؛ بل نجد أن الشاعر قد أَوحى بمنطقية الدهر وحتمية صروفه عبر الاستفهام التقريري، فالجور غالبًا ما يُساوق الدهر في تحجيم دور المثقفين واقصائهم على مرَّ العصور؛ لأنَّ الإنسان الحر هو في الغالب لم ينخرط في الثقافة السائدة، وإنَّ عدم انخراطه قد يؤدي إلى إعلان موقف مُضاد من ثقافة النسق، ومن ثم أَنَّ الثمن الذي سيدفعه سيكون باهضًا نتيجة عدم تجاوبه والثقافة التي لا تتلاقى ورؤيته القائمة على المثال، وبذلك سيتبنى موقفًا تجاوزيًا يتمثل بالصمود أمام التحديات التي تعترض طريقه، وقد أَوحى الشاعر بصلابة موقفه أَمام تلك التحديات، وصرَّح بأَثرها الكبير على نفسه عبر الافتراض المتمثل بتوقف نظام الكون عن تحمل أَيسر التحديات التي تتحملها الذات الحرة.

لَكِنَّ بعض البشر من ذوي النفوس الحرة قد لا يصمدون أَمام تلك التحديات التي تتطلب التجاوز، وقد تدفعهم تلك التحديات إلى اعتزال المجتمع، كما نجده في الأبيات التي يقول فيها ابن لنكك (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٤٠):

[من الوافر]

مَضَـــى الأَحْـــرَارُ وانْقَرَضُـــوا وَبَـــادُوا وَخَلَّفَنِـــي الزَّمَـــانُ عَلَـــى عُلُـــوجِ
وَقَـــالُوا قَـــدْ لَزِمْـــتَ الْبَيْـــتَ جِـــدًّا فَقُلْـــتُ لِفَقْـــدِ فَائِـــدَةِ الْخُـــرُوجِ
فَمَـــنْ أَلْقَـــى إِذَا أَبْصَـــرْتَ فِـــيْهِمْ قُـــرُودًا رَاكِبِـــيْنَ عَلَـــى السُّـــرُوجِ
زَمَـــانٌ عَـــزَّ فِيْـــهِ الْجُـــودُ حَتَّـــى تَعَـــالَى الْجُـــودُ فِـــي أَعْلَـــى الْبُـــرُوجِ

أَظهر الشاعر في هذه الأَبيات مدى الاغتراب الذي حفَّز نزوعه الاغترابي تُجاه عصره، فقد صرَّحَ ابن لنكك بمُضي الفئة التي كان يشعر بالانتماء إليها من أحرار مجتمعه، وإنَّ هؤلاء الأحرار قد انقرضوا وبادوا في العصر الذي عاش فيه؛ ليجد ذاته بين أُناسٍ لا ينتمي إليهم، فأَشار إلى تحولات الزمن التي من شأنها أَن تنتقل بالإنسان من مرحلة الانتماء التي تنسجم وأَفكاره التحررية، إلى مرحلة اللاانتماء التي تتقاطع وأَفكاره وتطلعاته، بحيث تجعله ينفصل عن العالم وتُحجِّمُ ذاته التي تتوق إلى الانعتاق، وإنَّ هذا التحول لهُ أَثرهُ على نفسية الإنسان، وقد تدفع به إلى اعتزال المجتمع، وبما أنَّ "الإنسان لا يُدرك شخصيته وأصالته وتفرده وتميزه عن كل شخص... إلا عندما يكون وحيدًا، وإلا عندما يستبد به ذلك الشعور الحزين الكئيب بانعزاله" (برديائف، العزلة والمجتمع، ١٩٨٢، صفحة ٩٣)، فقد صرَّح الشاعر بذلك الأثر في البيت الثاني المبني على الحوار (وقالوا/ فقلت)، فقد رد على من اعترض لزومه البيت واعتزاله المجتمع، عبر عرض الأسباب التي دفعت به إلى هذا الاعتزال؛ وأَهم هذه الأسباب هو عدم الفائدة من الخروج والشعور باللاجدوى تُجاه المجتمع، غير إنَّ هذه العزلة لدى الشاعر الاغترابي هي "عزلة نفسية غير مغيبة أي بمعنى تعي ذاتها وتُدرك محيطها، وتعرف بواعث عزلتها... فالعزلة النفسية لدى الاغترابي ضرورية لترك مسافة الرصد والمعاينة لوعي الذات أكثر ورغبته الأكيدة في التأثر والتأثير" (اليوسف، ٢٠١٣م، صفحة ١٢١)، بوساطة هذه العزلة، وبذلك أَشار إلى الحقيقة التي تمَّ رصدها في أَفراد المجتمع، وإنَّ هذه الحقيقة تجلَّت له عبر تصوراته الذهنية، إذا ما لقي أَحدهم في حالة افتراض خروجه من الدار، إذ صورهم بصورةٍ القرود التي تمتطي سُروج الخيل، وإنَّ هذه الإشارة التي أخذت منحًا تصويريًا في التعريض بهذه الفئة التي يلقاها إذا ما كسر حاجز اعتزاله، تعكس مرارة الشاعر، ومدى شعوره بالانفصال عن العصر الذي عاش فيه.

وقد عبَّرَ عن هذا الشعور في أبياتٍ أُخرى أَظهرت تلك المرارة التي كان يُكابدها في تلك المرحلة من حياته، قال فيها (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٥٦):

[من المنسرح]

لَـــمْ يَبْـــقَ حُـــرٌّ إِلَيْـــهِ يُخْتَلَـــفُ ... بَـــلْ كُـــلُّ نَـــذْلٍ عَلِيْـــهِ مُخْتَلَـــفُ
يَـــا فَلَكًـــا دَارَ بِالنَّذَالَـــةِ وَالْجَهَـــ ... ـــلِ إِلَـــى كَـــمْ تَـــدُورُ يَـــا خَـــرِفُ
فَعَاقِـــلٌ مَـــا يَبُـــلُّ أُنْمُلَـــهُ ... وَجَاهِـــلٌ بِالْيَـــدَيْنِ يَغْتَـــرِفُ

يرصد الشاعر في هذه الأبيات تلك المفارقة المتأتية من اختلال موازين الزمن، فحين يتم تغييب الأحرار عن ممارسة دورهم الريادي تنشأُ تلك الهوة التي تدفع بذوي النفوس الدنيئة إلى التصدر وملء ذلك الفراغ، ومن ثم تندفع شرائح المجتمع إلى الاختلاف –التردد– على فئة تتصف بسلوكيات اجتماعية ذميمة (النذالة)، وإنَّ تردد المجتمع على من يتصفون بهذه الصفات الذميمة يُوحي بالمكانة الاجتماعية المزعومة لهؤلاء، وبذلك يحل ذوو الجهل والزيف، محل العقلاء والأحرار الذين تم تغييبهم بوساطة المصالح الشخصية المتبادلة بين الفئة التي ذمها الشاعر والمجتمع الذي عاش فيه، وقد دفعه هذا الشعور إلى وصمِ الفلك الذي يتحكم بنواميس الكون وصروف الزمن بالأَوصاف نفسها التي رصدها الشاعر في مجتمعه؛ فاختلال موازين الزمن التي جعلت الأنذال مقصدًا لشرائح المجتمع المختلفة، جعلت الشاعر يستنكر دوران الفلك لصالح هذه الفئة المذمومة؛ لينعته –الفلك– بالخرف في سياق جملة الاستفهام الانكاري، إذ إنَّ هذا الاختلال أوجد الفوارق الطبقية بين فئات المجتمع العباسي، "وقد تجلى هذا التفاوت الطبقي في أسلوب المعيشة، فعاشت الطبقة الأولى حياة مغرقة بالترف والبذخ، والتبذير، وتفننوا في أساليب التكلف في مأكلهم ومشربهم ومسكنهم" (سلامي، ٢٠٠٠، صفحة ١٠٩)، في حين "كان الشعب يفتقر إلى لقمة العيش ويُعاني من الموت الجماعي، بسبب المجاعات المتعاقبة وموجات الغلاء المتوالية" (سلامي، ٢٠٠٠، الصفحات ١٠٩–١١٠)، وبذلك أَشار الشاعر في البيت الثالث إلى النتائج التي دفعت به إلى ذمِّ دوران هذا الفلك القائم على الاختلال، عبر المقابلة (العاقل/ الجاهل)، وعبر الانتقال من الجزء إلى الكل (أُنملهُ/

اليدين)، وتفاوت الأفعال من حيث الأثر (يبل/ يغترف)، فأشار إلى تفاوت المورد بين العاقل والجاهل، وإنَّ الأثر المترتب على هذا التفاوت بيَّنَهُ الشاعر عبر تقابل الأثر الكنائي، فقوله: (ما يبل أُنملهُ) كناية عن أَنَّ الدهر قد شحَّ على عقلاء عصره وخصهم بشظف العيش، وقوله: (باليدين يغترفُ) كناية عن أَنَّ الدهر قد أَغدق على جهلة عصره بالأموال، وخصهم بالخير والدعة والدعم اللامحدود.

ومن الأبيات التي أظهرت مدى سطوة الزمن على الأحرار في الزمن الذي عاش فيه ابن لنكك قوله (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٦٨):

[من مجزوء الرمل]

يَـــــا زَمَانًـــــا أَلْـــــبَسَ الْأَحْـــــرَارَ ذِلًّا وَمَهَانَـــــهْ
لَسْـــتَ عِنْـــدِي بِزَمَـــانٍ إِنَّمَـــا أَنْـــتَ زَمَانَـــهْ
كَيْـــفَ نَرْجُـــو مِنْـــكَ خَيْـــرًا وَالْعُلَـــى فِيْـــكَ مُهَانَـــهْ
أَجنُـــونٌ مَـــا نَـــرَاهُ مِنْـــكَ يَبْـــدُو أَمْ مَجَانَـــهْ

ونجد ابن لنكك يُخاطب الزمن الذي عاش فيهِ، واستنكر في هذا الخطاب الشعري اقصاء المثقف الواعي عن ممارسة دوره الريادي في المجتمع، وقد أوحى باختلال موازين الزمن الذي **(ألبس الأحرار ذلًا ومهانه)**، فالإنسان المثقف الحر مهمش ولا قيمة له في الزمن الذي تصدعت فيه القيم العليا، واستحالت إلى عيوب نسقية (القبحيات)، فصرَّحَ بألَّا خير يُرجى من زمنٍ يتصف بالاختلال واللامنطقية، إذ إنَّ السعي نحو المعالي في الزمن الذي عاش فيه ابن لنكك يستتبعُه الذل والهوان، وبذلك أَشار إلى مدى التحولات التي طرأت على القيم والمُثل العليا، وجعلت المجتمع في الزمن الذي عاش فيه الشاعر يتصف بالعوار الثقافي، لدرجة أَنَّ ابن لنكك قد أَنكر ما أَبداه الزمن إليه، فوصف ما شاهده في سياق التعجب والاستغراب **(أَجنونٌ... أم مَجانهْ)**، وهذا الوصف يُظهر مدى اختلال الشعور بالواقع وبالذات، وهو ما سنتطرق إليه في المحور الآتي.

المحور الثالث: اختلال الشعور بالواقع وبالذات

إنَّ أَزمة الوعي بالذات تتولد عبر مجموعة من الأعراض التي تحتوي على شُعور الفرد بأَنَّ العالم الواقعي الذي يبدو غريبًا بالنسبة إليه، أو دخيلًا غير مألوف، أَشبه بالحلم، وإنَّ الأَشياء تبدو له أقل من حجمها أَو أَكبر، فإنَّ الشخص الذي يُعاني اختلال الشعور بالواقع وبالذات، وبأَنَّ الأشياء قد أصبحت غير واقعية على غير حقيقتها، قد يُدمره الألم، إذ يكون غير قادر على التمييز –على نحوٍ جيد– بين الماضي والحاضر والمُستقبل، فكأَنَّ أحداث الزمن بالنسبة إليه كالحلم أو الكابوس (عبدالحميد، ٢٠١٢، الصفحات ١٣١–١٣٤)، وقد تمثل ابن لنكك ذلك الشعور في أَبيات ينحو بوساطتها هذا المنحى في التنديد باختلال موازين الزمن الذي أدى إلى تكثيف اختلال شعوره بالواقع وبالذات، كما في قوله (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٥٢):

[من الوافر]

عَجَائِـــبُ فِـــي زَمَانِـــكَ شَـــاهِدَاتٌ عَلَـــى خَـــرَفٍ مِـــنَ الفَلَـــكِ المُحِـــيطِ
يَـــرَى مُتَيَقِّظًـــا مَـــا لَا يَـــرَاهُ إِذَا مَـــا نَـــامَ آكِـــلُ قُنَّبِـــيطِ

إنَّ الأُمور التي خبرها الشاعر في حياته قد صنفها في هذا الخطاب الشعري من عجائب عصره، وعدها من الشواهد على اختلال موازين هذا الزمن الذي عاش فيه، فهذه العجائب –حسب الشاعر– شواهد على لامنطقية الفلك المحيط، وقد أَوحى ابن لنكك بأَنه لا ينتمي لهذا الزمان الذي يتصف بالاختلال، فبالرغم من أنَّ النظام الكوني يتصف بالضبط والإتقان في سيره ودورانه، غير أَنَّ هذا النظام لم يترك أَثره على النسق الاجتماعي في الزمن الذي عاش فيه الشاعر، فالعجائب التي ذكرها تشير إلى مدى تصدُّع المنظومة الثقافية التي هيمنت على عصره، إذ جعلت المتيقظ يرى ما لا يمكن أَن يراه النائم حتى في الأحلام، ويتضح من قوله: "إذا ما نام أكلُ قنبيط" أَنَّ هذه الثمرة تتصف بتحفيز الكوابيس؛ وقد أشار الثعالبي إلى أَثرها على من يتناولها في تعقيبه على هذا البيت بقوله: "لأَنَّ له خاصية في توليد السوداء، ويرى أَحلامًا ردية" (النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، ١٨٩٣م، صفحة ج٤٠٨/٢)، ولا سبيل لتلقي البيت الشعري إلا على وفق هذا المعنى.

ونجده في أَبيات أخرى يشير إلى حياته التي تكدَّرت بعد فراق أَحبته الذين كان يأنس بهم ويشعر بالانتماء إليهم، إذ يقول (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٦٥):

[من الطويل]

فِـــرَاقُ أَخِلَّائِـــي الـــذِّينَ عَهِـــدْتُهُمْ يُوَكِّـــلُ قَلْبِـــي بِـــالْهُمُومِ الْلَّـــوَازِمِ
وَمَـــاذَا أُرَجِّـــي مِـــنْ حَيَـــاةٍ تَكَـــدَّرَتْ وَلَـــو قَـــدْ صَـــفَّتْ كَانَـــتْ كَأَضْـــغَاثِ حَـــالِمِ

إنَّ أَزمة المغترب تتمثل بمعاناته المستمرة في عدم الاستقرار، والشعور المستمر بالقلق الوجودي الذي يُكثف الاحساس باختلال الواقع؛ وبما أَن أزمة الإنسان الحر تتمثل بمعاناته من المحيط الذي لا ينسجم معه ويتعارض وحريته، سيعتريه ذلك التنازع بين التخلي عن مبادئه وأَفكاره والانخراط في ثقافة النسق، أَو اعتزال المجتمع واثقال قلبه بالهموم اللوازم، وخاصة أَنَّ الشاعر أَشار إلى معاناته الخاصة المتمثلة بفراق أَخلائه الذين عهدهم وكان يشعر بالانتماء إليهم، وقد ترك هذا الشعور أَثره الكبير على الشاعر، إذ أخذ اليأس مأخذه منه وجعله يفقد الأمل بصفاء حياته التي اعتراها الكدر، وقد بلغ هذا اليأَس مبلغًا يستحيل فيه ترجي الحياة الكريمة، حتَّى على سبيل افتراض هذا الصفاء، فقد عمد الشاعر إلى توظيف ثنائية اليقظة والحلم، فشبَّه الشاعر هذا الافتراض بأَضغاث الأحلام التي تتنافى والواقع المُدرك.

ونجده في أَبيات أُخرى تقترب من الأبيات السابقة، إذ يُبيِّنُ أَنَّ الواقع المُدرك كالكوابيس التي تُفزع الرائي في منامه، يقول فيها (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٦٧):

[من الخفيف]

نَحْـــنُ وَاللهِ فِـــي زَمَـــانٍ غَشُـــومٍ لَـــو رَأَيْنَـــاهُ فِـــي الْمَنَـــامِ فَزِعْنَـــا
يُصْـبِحُ النَّـاسُ فِيـهِ مِـنْ سُـوءِ حَـالٍ حَـــقٌّ مَـــنْ مَـــاتَ مِـــنْهُم أَنْ يُهَنَّـــا

إنَّ موقف ابن لنكك من الزمان الذي عاش فيه، هو موقف المغترب المتقاطع وثقافة النسق، أو موقف الانسان الذي يزدري الواقع، إذ إنَّ هذا الازدراء نابع من شعوره بلا منطقية الزمن الذي لم يُلبِ احتياجات المجتمع وتطلعات أَفراده، وخاصة احساسه الضاغط بعدم انصاف طبقة النخبة من ذوي المواهب وحملة الفكر، وبذلك تتشكل المعاناة التي تدفع بالفرد إلى الانفصال عن محيطه، وقد وصف الشاعر قساوة الزمن الذي عاش فيه بأَنه زمنٌ مرعب، وقد أَوحى بأَنَّ زمانه أَشدُّ رعبًا من الكوابيس، إذ إنَّ الإنسان يتخلص من رعب الكوابيس عبر الفزع، في حين أَنَّ زمانه لا فزع فيه لكي يخُلصه من ضغط الواقع، لذا فهو مجبرٌ على تحمُّلِ العيش في هذا الزمان الغشوم الذي يُصبحُ فيه الناس على الأحوال السيئة، وبما أَنَّ الفزع في عالم النوم يُمثل الخلاص من الكوابيس المرعبة، فقد اتخذ الشاعر من الموت وسيلةً تُخلص الإنسان من قساوة العالم

الواقعي، فجعل الموت في العالم الواقعي يُقابل الفزع من الكوابيس في عالم النوم، فكأنه يُريد أَن يقول: إِنَّ معاناة هؤلاء الناس في هذا الزمان، لا مفزع منها وتبقى مستمرة إِلى أَنَّ يُدركهم فزع الأجل الذي يُنجيهم من سطوة الزمن، والأحقُّ بهم أَن يُهنَّؤون على هذا الخلاص، بدلًا من تقديم التعازي على وفاتهم.

المحور الرابع: اقصاء المُثقف عن دوره الريادي

إِنَّ الواقع الذي يُعاني من التصدع القيمي يُضفي ميزة الاختلال على الزمن، ويتجلى هذا الاختلال في النسق الذي يُهمش النخبة المُثقفة ويُقصي دورهم الريادي في المجتمع، وإِنَّ هذا الاقصاء والتهميش يحول بينهم وبين مطامحهم، فـ"في مختلف النظم والثقافات والمجتمعات... يوجد أفراد يشعرون بتفردهم وتميز شخصيتهم، وبالعجز عن التجاوب مع الأوضاع السائدة في المجتمع الذي يعيشون فيه... ويرفضون القيم العامة التي تسود فيها والتي يتقبلها أو لا يرفضها بقية أفراد المجتمع" (الفلاحي، ٢٠١٣م، صفحة ٢٦)، وقد رصد الشعراء في العصر العباسي العقبات التي تعترض طريق الأدباء المبدعين، وعمدوا إِلى استدعاء هذا التنازع المتمثل بتمسك النخبة من ذوي الفضل والأَدب بالمبادئ والقيم التي ارتكزت في وجدانهم، أو الانخراط في ثقافة النسق التي تُعاني من العيوب النسقية (القبحيات) التي تقتضي انحياز الإِنسان إِلى دائرة الجهل، وبذلك تتجلى هذه المفارقة في المنتج الثقافي الذي يترجم شعورهم بمرارة الأَلم، وقد عبَّرَ شعراء العصر العباسي عن موقفهم من الزمن الذي لم يُنصف الأَدباء والعباقرة بسخرية مريرة، تصل إِلى حدِّ توظيف بعض الكلمات النابية التي تُظهر مدى معاناة الشعراء في ذلك العصر من الواقع الذي يتصف بالغبن والازدراء، وقد أَدرك ابن لنكك البصري أزمة العصر الذي عاش فيه، إِذ أَشار إِليها الثعالبي في يتيمته بقوله: "وكانت حرفة الأدب تمسهُ وتجشمهُ، ومحنة الفضل تُدركه فتخدشهُ، ونفسه ترفعه ودهره يضعه" (الثعالبي ٤٢٩هـ، ١٩٨٣م، صفحة ٤٠٧)، وقد صرَّح ابن لنكك عن موقفه من الزمن الذي عاش فيه عبر هذه الأبيات التي يقول فيها (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٤٩):

[من الكامل]

حِرْمَـــانُ ذِي أَدَبٍ وَحَظـــوَةُ جَاهِـــلٍ ... أَمْـــرَانِ بِيْنَهُمَـــا الْعُقُـــولُ تَحَيَّـــرُ
كَـــمْ ذَا التَّفَكُّـــرُ فِـــي الزَّمَـــانِ وَإِنَّمَـــا ... يُـــزْدَادُ فِيْـــهِ عَمَـــى إِذَا يُتَفَكَّـــرُ
الْأَرْذَلُـــونَ بِغِبْطَـــةٍ وَسَـــعَادَةٍ ... وَالْأَفْضَـــلُونَ قُلُـــوبُهُمْ تَتَفَطَّـــرُ

إِنَّ أَصعب شعورٍ يمرُّ على ذوي الفكر وأَرباب الأدب هو اقصائهم عن المكانة التي يستحقونها، وقد تمت الإِشارة في تحليل نص سابق إِلى أَنَّ هذا الاقصاء يُقلق المُبدع ويضاعف شعوره بالاغتراب، فحين يتم تغييب هذه النخبة المثقفة عن ممارسة دورهم الريادي، يتصدر غير المؤهلين المشهد العام، ومن ثمَّ سيظفر هؤلاء بالغبطة والسعادة، في حين ستتفطر قلوب النخبة المثقفة بسبب الحرمان وعدم الانصاف، وهذا أَزمة المبدعين الذين تملكتهم نزعة الاغتراب، وبذلك لا يشعرون بالانتماء إِلى الزمن الذي حال بينهم وبين بلوغ مطامحهم، وقد عمد الشاعر إِلى مُسائلة الزمان الذي حيَّرَ العقول بجمعه النقيضين المتمثلين بالغُبنِ الذي طال النخبة من ذوي الأَدب، والحظوة التي ظفر بها الأرذلون، وأَوضح أَنَّ الإِنسان كلما ازداد تفكيرهِ للإِجابة عن هذا التساؤل، كلما اعتاصت عليه الحلول وازداد المُتفكر عمىً؛ لعدم الظفر بإِجابة منطقية توضح أَن الجمع بين النقيضين ممكنٌ.

وربما يُجيب ابن لنكك بصورة غير مباشرة عن جزءٍ من هذه التساؤلات التي اعتاصت حلولها، وقد أَرجع الأسباب التي همشتهُ في الزمن الذي عاش فيه إِلى حظه العاثر، إِذ يقول في هذا الخطاب الشعري الذي جاء فيه (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٥٧):

[من البسيط]

إِنْ أَصْـبَحَتْ هِمَمِـي فِـي الأُفْـقِ عَالِيَـةً فَـإِنَّ حَظِّـي بِـبَطْنِ الْأَرْضِ مُلْتَصِـقُ
كَـمْ يَفْعَـلُ الـدَّهْرُ بِـي مَـا لَا أُسَـرُّ بِـهِ وَكَـمْ يُسِـيءُ زَمَـانٌ جَـائِرٌ حَنِـقُ
كَـمْ نَفْخَـةٍ لِـي عَلَـى الْأَيَّـامِ مِـنْ ضَـجَرٍ تَكَـادُ مِـنْ حَرِّهَـا الْأَيَّـامُ تَحْتَـرِقُ

نلحظ في هذا الخطاب الشعري أَنَّ ابن لنكك يُجيب على جزء من التساؤلات التي تسببت بمعاناة الطبقة النخبوية من ذوي الهمم وأَرباب الأدب، وبما "أنَّ المسؤولية الأَساسية للإنسان تتمثل في ضرورة بناء حياته الفردية والاجتماعية، وتنظيمها طبقًا لِمَا تقتضيه مصالحه أو رغباته أو أفكاره، وتُعدُّ هذه المسؤولية أمرًا طبيعيًا" (جاسم، ١٩٨٦، الصفحات ١٥٥-١٥٦)، عمد الشاعر إلى رصد هذه المُفارقة المُتمثلة بهمته العالية التي تُساوق الشُّعور بالمسؤولية لتطوير حياته وتنظيمها، ومعاناته الذاتية التي شابها الإِخفاق، فحال دون تحقق مطامح الشاعر، وقد أَرجع أَسباب معاناته الذاتية المتأتية من الغبن الذي طاله إلى فألِهِ السيء، وأخذ الشاعر يندب حظه العاثر، ويستكثر صنائع الدهر به، وإساءة الزمان إليه، فبالرغم من أَنَّ هممه العالية قد عمَّت الأفاق، غير أَنَّ هذه الهمم لم تُلبِ مطامح الشاعر؛ لأَنَّ الوسيلة المتمثلة بالهمم مهما بلغ علوها، لا تُوصل الطامحين إلى غاياتهم المنشودة حسب الشاعر؛ فحظُّ الإِنسان في هذه الحياة يلعب دورًا كبيرًا في تذليل العقبات التي قد تعترض طريق ذوي الهمم، أو قد يحول الحظ بينهم وبين بلوغ مطامحهم، وإِنَّ هذه الحيلولة تُؤثر سلبًا على حياة المبدعين، وتستثير مشاعر الألم لديهم، وقد عبَّر الشاعر عن معاناته في مكابدة هذا الألم وأَشار إلى ردَّة فعله التي اقترنت بنفحات الضجر، وبيَّنَ مدى حرارة تلك النفحات التي تكاد تحرق الأيام.

وقد عبَّرَ ابن لنكك عن المعاناة التي كان يُكابدها، ولاسيما أَزمته مع الفقر المتأتي من اختلال موازين الزمن "إذ يُعد الفقر من تلك الظروف التي تبعث الخوف في النفس، فتساور الإِنسان هموم البؤس، وهواجس الحاجة والفاقة، فالفقر، من الافات التي يُحاذر المرء أن يقع في مخالبه" (الدريسات و جبل، ٢٠٢٦، صفحة ١٣٥)، إذ يقول في هذه الأَبيات (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٥٧):

[من الطويل]

وَمَـا الفُقْـرُ إِلَّا لِلْمَذَلَّـةِ صَـاحِبٌ وَمَـا النَّـاسُ إِلَّا لِلْغَنِـيِّ صَـدِيقُ
وَأَصْـغَرُ عَيْـبٍ فِـي زَمَانِـكَ أَنَّـهُ بِـهِ الْعِلْـمُ جَهْـلٌ، وَالْعَفَـافُ فُسُـوقُ
وَكَيْـفَ يُسَـرُّ الْحُـرّ فِيـهِ بِمَطْلَـبٍ وَمَـا فِيْـهِ شَـيءٌ بِالسُّـرُورِ حَقِيْـقُ

يُظهر هذا الخطاب الشعري مدى تصدُّع النسق القيمي الذي هيمن على زمن الشاعر، فقد صرَّح ابن لنكك بالعيوب النسقية المتأَتية من اختلال موازين الزمن، إذ استحالت القبحيات إلى جماليات مُخادعة، وقد أَوحى عبر هذا التصريح بموقفه المُتقاطع وثقافة النسق؛ فالإِنسان بطبعه كائن اجتماعي، وقد يتقبل الانخراط في الثقافة السائدة استجابة لطبعه، بصرف النظر عما إذا كانت هذه الثقافة قويمة أو تُعاني من العوار الثقافي؛ ولكن الأمر بالنسبة إلى الإِنسان المتقاطع وثقافة النسق مُختلف، إذ غالبًا ما تصطدم فكرة تقبل الواقع بصخرة الوعي التي تُميِّزُ الإِنسان الاغترابي عمن سواه، وإِنَّ هذا الوعي هو الذي يحول بينه وبين الاستجابة للطبيعة الإِنسانية التي تحثُّهُ على تقبُّل ثقافة عصره والانخراط في المجتمع، وعندئذ ينشأُ التنازع بين تصوراته الذهنية القائمة على المثال، وتقبُّل الواقع الذي يُعاني من التصدع القيمي، فإِنَّ أَزمة اللامنتمي تكمن في عدم انسجامه والواقع القائم على الزيف.

ونجده في أَبيات أخرى وكأَنه يُخيِّرُ الإِنسان بين التمسك بالمبادئ والقيم وتحمُّلِ تبعات الوعي، أَو الانخراط في الثقافة التي تُعاني من العيوب النسقية التي تقتضي منه الانحياز إلى الجهل، إذ يقول فيها (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٦٠):

[من الوافر]

زَمَـــــانٌ قَـــــدْ تَفَـــــرَّغَ لِلْفُضُـــــولِ يُسَـــــوِّدُ كُـــــلَّ ذِي حَمَـــــقٍ جَهُـــــولِ
فَـــــإِنْ أَحْبَبْـــــتُمُ فِيـــــهِ ارْتِيَاحًـــــا فَكُونُـــــوا جَـــــاهِلِيْنَ بِـــــلَا عُقُـــــولِ

أشار ابن لنكك في هذا الخطاب الشعري إلى أَنَّ الزمن الذي تنعدم فيه المواثيق القويمة، ويتصف باختلال الموازين، يُشكِّلُ العقبة الكبيرة التي تعترض طريق ذوي الفضل والأدب، وإنَّ الوعي العالي قد يُشكِّلُ أَزمة الإنسان في الزمن الذي تصدَّعت فيه منظومة القيم، وغالبًا ما يدفعه هذا الوعي إلى تبني موقف الرفض وعدم الانتماء، ومن ثم سيكون عُرضةً لتبعات مواقفه التي تتقاطع وثقافة النسق، ولابُدَّ أَن يتحمل الإنسان تبعات التقاطع والانفصال التي تُقلقه وتسلبه راحة البال، وعلى هذا الأساس اشترط الشاعر بأَن اختيار نعيم الراحة في الزمن الذي تصدَّعت فيه القيم الثقافية، يقتضي تخلي الإنسان عن مصدر الوعي (العقل)، وحتى ينعم بصفاء الذهن وراحة البال؛ لابُدَّ أَن يتوافق مع الجاهلين في سلوكياته.

إنَّ التبعات المُتأَتية من تمسك ذوي الفضل والأَدب بالمبادئ والقيم، تتجلى في المنتج الثقافي الذي يترجم شعورهم بمرارة الأَلم، وقد يُعبر الشاعر عن المعاناة التي تحملها بسخرية مريرة وكلماتٍ نابية، كما نجده في هذه الأَبيات التي قال فيها ابن لنكك (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٥٢):

[من البسيط]

لَا مَكَّـــــتَ اللهُ دُنْيَانَـــــا فَقِيْمَتُهَـــــا لَيْسَـــتْ تَفِـــي عِنْـــدَ ذِي عَقْـــلٍ بِقِيْـــرَاطِ
دُنْيَـــا تَأَبَّـــتْ عَلَـــى الْأَحْـــرَارِ عَاصِـــيَّةٌ وَطَاوَعَـــــتْ كُـــــلَّ صَـــــفْعَانٍ وَ....

يُعلن ابن لنكك في هذا الخطاب الشعري عن سخطه المتأتية من عدم انصاف الطبقة النخبوية في عصره، وقد أوحى عبر هذا السخط بموقفه المتقاطع وثقافة النسق التي امتنعت عن استيفاء أَدنى استحقاقات هذه الطبقة النخبوية، وقد صرَّحَ بمفارقة الواقع السائد في العصر الذي عاش فيه، وبيَّنَ مدى تبعات هذه العيُوب النسقية التي همَّشت الأحرار وضيَّقت الخناق على النخبة المثقفة في المجتمع، فأَزمة الانسان المغترب تتمثل بالواقع الذي لم يُلبِ مطامح الأحرار، أَو يستوفي مستحقات فئة النخبة، في حين أَنَّ هذا الواقع قد طاوع من اعتادوا على تقبُّلِ صفعات أَسيادهم (العبيد)، وانسجم مع الفئة المتدنية في المجتمع، فأَشار الشاعر إلى هذه الفئة عبر سلوكياتهم التي جاوزت حدود الأدب واللياقة في سبيل اسعاد أَولياء نعمتهم (الندمان، المتملقين...إلخ)، وبذلك أَوحى الشاعر إلى أَنَّ الواقع الذي تصدَّعت فيه المنظومة القيمية لا يُمكن أَن يلبي مطامح الأحرار، أَو أَن يكون بيئة ملائمة لطبقة النخبة، في حين أَنَّ هذا الواقع يُلاقي قبولًا واستحسانًا من قِبل الفئة المهمشة.

إنَّ الواقع الذي يُعاني من التصدع يُحجِّمُ دور النخبة، ويحول بينهم وبين مطامحهم، وقد يُعبّرُ الشاعر عن موقفه تُجاه الزمن الذي أَوجد هذا الواقع المُزري بكلماتٍ نابية، كما نجده في هذه الأبيات التي يقول فيها ابن لنكك (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٣٦):

[من المنسرح]

عَجِبْـــتُ لِلْـــدَهْرِ فِـــي تَصَـــرُّفِهِ وَكُـــلُّ أَفْعَـــالِ دَهْرِنَـــا عَجَـــبُ
يُعَانِـــدُ الـــدَّهْرُ كُـــلَّ ذِي أَدَبٍ كَإِنَّمَـــا .... أُمَـــهُ الْأَدَبُ

إنَّ تمسك الإنسان بالمبادئ السامية والقيم وتحمُّلِ تبعات الوعي، تحول بينه وبين الانخراط في الثقافة التي تُعاني من العيوب النسقية، وإنَّ رفض النعيم المتأتي من الجهل يُشكِّلُ العقبة التي تعترض سبيل النخبة من ذوي الوعي، وقد أَشار

الشاعر إلى مُعاناة الأدباء الذين رفضوا الانخراط في ثقافة النسق بصورة غير مباشرة؛ إذ إنَّ هذا الانخراط قد يؤدي إلى تخلي المثقف (الشاعر) عن قناعاته الخاصة، وهنا يتشكل ذلك التقاطع بين سطوة الدهر على المثقف، ومطامح المثقف التي يبتغيها من الدهر، ومن هنا نجد أَنَّ الشاعر قد أَبدى تعجبه من صروف الدهر التي تعترض مطامح النخبة من الأدباء، ولمَّحَ إلى ذلك عبر أَنسنة الدهر وتجسيده بفعل الخيال الاستعاري (يُعاند الدهر...)، ولم يعبأُ ابن لنكك بتصوير الدهر بتلك الصورة التي تنتهك حدود الحياء؛ لأَنَّ الشاعر ربما قد ضاق ذرعًا بما آلت إليهِ ظروف الأدباء، والنخبة من حملة الفكر، فلم يجد التعبير الذي يتوافق ومقتضى الحال سوى توظيف تلك الكلمات النابية التي انبثقت من صميم آلامهِ، وصوَّرت واقع الأدباء المزري.

المحور الخامس: التبرم من الشيب والاعتبار من الموت

إِنَّ اختبار الإنسان للزمان الذي وُجد فيه، والمعاناة التي واجهها في الأيام التي عاشها، قد تترك أثرًا سلبيًا عليه، "ويتخذ الزمان دلالة مختلفة كل الاختلاف حينما يُنظر إليه من وجود الإنسان الداخلي، والطابع الزماني لمصير الإنسان في العالم الوضيع ليس غير صفة ثانوية؛ لأَنَّ الزمان محكوم بمصير الإنسان، وبكلِّ ما فيه من تغيرات وأحداث" (برديائف، ١٩٨٢، صفحة ١٢٧)' من شأنها أَن تُضاعف الشعور بالاغتراب، و"يُعدُّ الشيب مصدرًا مثيرًا لهواجس القلق الإنساني، إذ إنَّهُ يُمثِّلُ محطة تُنذرُ بالتحولات السلبية للإنسان حين أخذت بوادر الضعف والاستلاب تلوح بالأُفق، مما يثير توترات الإنسان الداخلية بعدما عاش مرحلة مليئة بالعطاء والحيوية" (الفلاحي، ٢٠١٣م، صفحة ١٤٠)، فـ"المرض، والشيخوخة، والموت، والدهر وغير ذلك من الحالات التي قد تعترض للشخص فتكدر عليه صفو الحياة، ويشعر إزاءها بالهموم وشدة اليأس" (الشهري، ٢٠٠٢م، صفحة ١١)، وقد عبَّرَ الشعراء عن هواجس الاغتراب القلقة بمشاعر مشحونة بالتسليم لسطوة الزمان، وتقبُّل فكرة الموت والاعتبار منه، إذ لا جدوى من تحدي سلطة الزمان، ولا طائل من سطوة تحولاته وآثاره، وقد صرَّح ابن لنكك بتلك الآثار المتأتية عن تلك المُواجه، كما نجده في قوله (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٦٥):

[من الكامل]

نَكِـرَتْ نُحُـولِي وَهُـوَ مِـنْ فَـرْطِ الْأَسَـى لِفِـــرَاقِ إِخْـــوَانٍ عَلَـــيَّ كِـــرَامِ
وَتَعَجَّبْـــتُ لِلْشَـــيْبِ، لَا تَتَعَجَّبِـــي هَـــذَا غُبَـــارُ وَقَـــائِعِ الْأَيَّـــامِ

إِنَّ التغيير السلبي الذي طرأَ على ملامح الشاعر، ودفع بكلِّ من يراه إلى انكار هيأته من أَثر النحول، يُظهر مدى المعاناة التي قد كابدها في الزمن الذي عاش فيه، إذ إِنَّ شعور ابن لنكك بالأسى المفرط تُجاه فراق أخلائه، ترك تلك الآثار التي أسهمت في تغيير صورته، وقد أَوضح الشاعر أَنَّ هذا الشيب الذي عمَّ رأَسهُ، لا يستوجب التعجب، إذ إِنَّ هذا الشيب هو غبار المعارك التي خاضها الشاعر مع وقائع الأيام، فاستبدل الأيام القاسية التي انصرمت من سني عمره بالوقائع، والبياض الذي عمَّ رأَسه بالغبار الذي يكسو ملامح الفرسان ويُغيِّرُ ملامحهم في الميدان، وقد وظف ابن لنكك هذا الاستبدال بوصفه نسقًا تعويضيًا يهوِّنُ عليه مرارة التبرم من الشيب، وبذلك شبَّه تغيِّر ملامحه بالأوسمة التي يحوزها الفارس المقدام بعد أَن حقق النصر المؤزَّر، وإِنَّ هذه الأوسمة تستدعي افتخار من اجتاز تلك التحديات. وتُوجب التعجب لها، وليس التعجب منها.

ومن الأَبيات التي تُظهر تأسف الشاعر ابن لنكك على شبابه الذي ولَّى، قوله (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٣٨):

[من الطويل]

تَوَلَّى شَبَابٌ كُنْتُ فِيْهِ مُنَعَّمًا تَرُوحُ وَتَغْدُو دَائِمَ الْفَرَحَاتِ
فَلَسْتَ تُلَاقِيهِ وَلَو سِرْتُ خَلْفَهُ كَمَا سَارَ "ذُو الْقَرْنَيْنِ" فِي الظُّلُمَاتِ

إنَّ الشاعر أكثر حساسية من غيره في ملاحظة التغيرات التي تطرأ على تكوينه، إذ إنَّ رصد الآثار السلبية المتأتية من تقدم العمر به، تستثير مشاعر القلق والاضطراب ازاء التغيرات التي طرأت على ملامحه، وتُشعره باستحالة عودة الشباب، ومغادرة هذه المرحلة العمرية تُنذر بدنو الأجل، فأوحى ابن لنكك عبر هذين البيتين بتأسفه على ربيع عمره الذي ولى، وتبرمه من التغيرات التي أحدثها الزمن على ملامحه، فنقل إلينا عبر هذين البيتين مشاعر الاغتراب التي تملكته في تلك المرحلة العمرية.

ومن الأبيات التي أوحت بمشاعر الاغتراب التي تملكت الشاعر ابن لنكك بعد أن بلغ خريف عمره، قوله (زاهد، ٢٠٠٥، الصفحات ٦٦-٦٧):

[من الكامل]

لَعِبَ الهَوَى بِمَعَالِمِي وَرُسُومِي وَدُفِنْتُ حَيًّا تَحْتَ رَدْمِ هُمُومِ
وَشَكَوْتُ هَمِّيَ حِيْنَ ضُقْتُ وَمَنْ شَكَا هَمًّا يَضِيْقُ بِهِ فَغَيْرُ مَلُومِ

يُظهر هذين البيتين مدى الحزن الذي ألمَّ بالشاعر ابن لنكك، وبيَّنَ مدى مشاعر الاغتراب التي تملكته في تلك المرحلة العمرية، فمعالم الشباب التي عفا عليها الزمن أشعرته بالعقبات التي اعترضتهُ على مدى المراحل العمرية التي مرَّ بها، وجعلته يشعر بأنه قد دُفن تحت ردم هذه الهموم التي أوجدتها تلك العقبات، فأشار بذلك إلى المعاناة التي كان يُكابدها، والهموم التي ضيَّقت الخناق عليه في حياته، وتركت آثارها السلبية على ملامحه، وإنَّ هذه الهموم قد بثَّها الشاعر في نصوصه الشعرية، ونقلت إلينا تشكيه من الزمن الذي عاش فيه، وبيَّنَ أَنَّ ما مرَّ به من محن على مدى مراحل عمره دفعت به إلى هذا الاتجاه الشعري (الشكوى).

وبعد أَن اختبر ابن لنكك الزمن الذي عاش فيه، نجده يقرُّ بالحقيقة المؤلمة التي تستدعي أَن يتعظ الإنسان منها، إذ يقول (زاهد، ٢٠٠٥، صفحة ٤٦):

[من البسيط]

فِيَّ اعْتِبَارٌ لِمَنْ أَضْحَى أَخَا فِكَرٍ كَمْ ذَا يُبَيِّنُ فِي المَوتَى مِنَ العِبَرِ
إِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِي فَاعْتَبِرْ عِظَةً وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ تَقْفُونَا عَلَى الأَثَرِ

إنَّ التجارب التي يختبرها الإنسان في حياته من شأنها أَن ترفع منسوب الوعي وتجعلهُ يُدرك الحقيقية التي تدفعهُ إلى الاعتبار من تلك التجارب التي خبرها، وقد صرَّحَ ابن لنكك بذلك الاعتبار الذي خَبِرَهُ، وأَشار إلى الحقيقة المطلقة المتمثلة بنهاية الإنسان في هذه النشأة، إذ إنَّ الموت "يجري حتى في اللاشعور، وليست هناك قدرة على محوه، فهو شاخص في جدلية الفكر والنفس الإنسانيين" (جاسم، ١٩٨٦، صفحة ١٥٦)، وإنَّ هذه النهاية –الموت– تستدعي أخذ العظة والاعتبار لمن سيواجه هذا المصير، إذ إنَّ هذا الاختبار الذي مرَّ به الشاعر في حياته، والنهاية الحتمية المتمثلة بالموت، تختصر رحلة الإنسان في هذه النشأة والمعاناة التي يمرُّ بها، والنهاية التي تنتظره.

الخاتمة

حفل شعر ابن لنكك البصري بالتمثلات الثقافية التي تحتشد بدلالة الاغتراب، فقد عبَّرَ عن هذا النزوع بوساطة تمثل دلالة الزمن الذي اتكأ عليه، إذ اتخذ من شكوى الزمان وذمه، ومُغالبة الدهر الذي اختلت موازينه نسقًا يتناغم وما جُبلت عليه ذاته المُغتربة، فعمد إلى تحميل الزمن التبعات التي أدت إلى تصدع الواقع، وقد عمد إلى استنطاق الأزمات التي أوجدت ذلك الصدع، بوصفها عقبات تعترض طريق الأحرار في أزمانهم، ولم يكتف الشاعر بالتعبير عن موقفه من الزمن الذي يتصف بالاختلال؛ بل عبَّر عن نزوعه المتقاطع وثقافة النسق بوساطة التصريح باختلال الشعور بالواقع وبالذات، وانعدام التمييز –على نحوٍ جيد– بين العالم المعقول واللامعقول فكأنَّ أحداث الزمن بالنسبة إليه كالكوابيس، وقد تمثَّلَ هذا المعنى في أَكثر من نص للتعبير عن نزعة الاغتراب التي استحوذت على وجوده، إذ إنَّ الواقع من منظور الشاعر ابن لنكك يتصف بالتصدع، وإنَّ هذا التصدع حسب الشاعر يُعزى إلى اختلال في موازين الزمن التي أدت إلى اختلال شعوره بالواقع وبالذات.

إنَّ الواقع الذي يُعاني من التصدع القيمي من شأنه أَن يُضفي ميزة الاختلال على الزمن، ولعل أَبرز صورة يتبدَّى فيها هذا الاختلال هي المفارقة القائمة على تهميش نُخبة العلماء والأدباء والمثقفين، واقصائهم عن دورهم الريادي في المجتمع، وتصدير الجهلة والمتملقين الذين وصلوا إلى الحظوة والمكانة المرموقة بالطرق الدنيئة، وقد عمد ابن لنكك إلى استدعاء هذه المفارقة المتمثلة بتمسك النخبة من ذوي الفضل والأَدب بالمبادئ والقيم التي ارتكزت في وجدانهم، أو الانخراط في ثقافة النسق التي تُعاني من العيوب النسقية (القبحيات) التي تقتضي انحياز الإنسان إلى دائرة الجهل، وقد عبَّرَ ابن لنكك عن موقفه من الزمن الذي لم يُنصف الأَدباء والعباقرة في العصر الذي عاش فيه بسخرية مريرة، وقد بلغت هذه السخرية في بعض النصوص حدًّا عمد فيه إلى توظيف بعض الكلمات النابية التي تُظهر مدى معاناته الذاتية من الواقع الذي يتصف بالغبن والازدراء.

إنَّ الشاعر أكثر حساسية من غيره في ملاحظة التغيرات التي تطرأ على ملامحه، وإنَّ رصد الآثار السلبية المتأتية من تقدم العمر، تستثير مشاعر القلق والاضطراب ازاء التغيرات التي طرأت على تكوينه، وتُشعره باستحالة عودة الشباب، ومغادرة هذه المرحلة العمرية تُنذر بدنو الأجل، وإنَّ نهاية الإنسان الحتمية –الموت– تقتضي أخذ الاعتبار لمن تنتظره هذه النهاية، إذ إنَّ هذا الاختبار الذي مرَّ به الشاعر في حياته، والنهاية الحتمية المتمثلة بالموت، تختصر رحلة الإنسان في هذه النشأة والمعاناة التي يمرُّ بها، والنهاية التي تنتظره.

المصادر والمراجع

أبي حيان التوحيدي (ت٤١٤هـ). (١٩٩٨م). الصداقة والصديق (المجلد الثانية). (إبراهيم الكيلاني، المحرر) دمشق، سورية: الدار الفكر.

أَبي منصور عبدالملك الثعالبي النيسابوري (ت٤٢٩هـ). (١٨٩٣م). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (المجلد الاولى). (شرح وتحقيق: الدكتور مفيد قميحة، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

أحمد أمين. (د.ت). ظهر الإسلام (المجلد الاولى). القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

أحمد حلمي حلوه (المحرر). (٢٠١٥). ديوان الخبزأزري (٢٤٠هـ-٣٣٠هـ) (المجلد الاولى). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أَدونيس علي أَحمد سعيد. (١٩٧٩). مُقدمة للشعر العربي (المجلد الثالثة). بيروت، لبنان: دار العودة.

الدكتور أحمد علي الفلاحي. (٢٠١٣م). الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري دراسة اجتماعية نفسية (المجلد ١). الأردن: دار غيداء للنشر والتوزيع.

آيات ضياء مهدي صالح. (٢٠٢٥). بنية الشخصية في شعر الصعاليك. مجلة واسط للعلوم الإنسانية، https://wjfh.uowasit.edu.iq/index.php/wjfh/ar(٤).

جمال الدين أَبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور (ت٧١١هـ). (٢٠٠٥م). لسان العرب (المجلد ط١). (حققه وعلق عليه ووضع حواشيه: عامر أَحمد حيدر، راجعه: عبدالمنعم خليل إبراهيم، المحرر) لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية.

خير الدين الزركلي. (٢٠٠٢). الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (المجلد الخامسة عشر). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

ريتشارد شاخت. (١٩٨٠). الاغتراب (المجلد ط١). (كامل يوسف حسين، المترجمون) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

زهير غازي زاهد (المحرر). (٢٠٠٥). شعر ابن لنكك البصري (المجلد الاولى). كولونيا، ألمانيا: منشورات الجمل.

سجاد محسن فرحان جبل الدريسات، و أحمد كاظم سلمان جبل. (٢٠٢٦). الفقد وعلاقة السوداوية بالذاكرة والتاريخ في الشعر العراقي بعد ٢٠٠٣. مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، https://lark.uowasit.edu.iq/index.php/lark/ar،(١٨)

سميرة سلامي. (٢٠٠٠). الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري (المجلد الاولى). دمشق: دار الينابيع.

شاكر عبدالحميد. (٢٠١٢). الغرابة المفهوم وتجلياته في الأدب. الكويت: عالم المعرفة.

صلاح الدين بن ايبك الصفدي (ت٧٦٤هـ). (٢٠٠٠م). الوافي بالوفيات (المجلد الاولى). (أحمد الارنأووط، و تزكي مصطفى، المحررون) بيروت، لبنان: دار احياء التراث العربي.

ظافر عبدالله الشهري. (٢٠٠٢م). الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري (المجلد ١). السعودية: مكتبة الملك فهد الوطنية.

عبدالعزيز المقالح. (١٩٨٥). الشعر بين الرؤيا والتشكيل (المجلد الثانية). دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

عبدالملك النيسابوري الثعالبي ٤٢٩هـ. (١٩٨٣م). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (المجلد ١). (أَبي منصور الدكتور مفيد قميحة، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

عزيز السيد جاسم. (١٩٨٦). تأملات في الحضارة والاغتراب (المجلد ١). بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية.

علي شتا. (١٩٨٤م). نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع (المجلد ط١). الرياض، المملكة العربية السعودية: دار عالم الكتب.

علي محمد اليوسف. (٢٠١٣م). فلسفة الاغتراب قراءة منهجية في فلسفة الاغتراب (المجلد الاولى). بيروت، لبنان: الدار العربية للموسوعات.

قيس النوري. (١٩٧٩م). الاغتراب اصطلاحًا ومفهومًا وواقعًا. مجلة عالم الفكر(١٠).

محمد بن شاكر الكُتبي (ت٧٦٤هـ). (١٩٧٣). فوات الوفيات والذيل عليها. (احسان عباس، المحرر) بيروت، لبنان: دار صادر.

مسارع حسن الراوي. (٢٠٠٢م). الاغتراب والغربة في الفكر العالمي والتراث العربي الإسلامي. مجلة المجمع العلمي العراقي.

نيقولاي برديائف. (١٩٨٢). العزلة والمجتمع. (فؤاد كامل عبدالعزيز، المترجمون) الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ياقوت الحموي الرومي. (١٩٩٣م). معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (المجلد الاولى). (تحقيق الدكتور إحسان عباس، المحرر) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.